الفصل الثانى

النظرية العامة فى الفعل

أولا : فكرة الفعل الاجتماعى ٠

ثانيا : أنساق الفعل الاجتماعى ٠

ثالثا : الأنماط الثقافية ـ العناصر البنائية لأنساق الفعل ٠

رابعا : متغيرات النمط فى أنساق الفعل ٠

خامسا : المستلزمات الوظيفية لأنساق الفعل ٠

سادسا : الأنساق الفرعية للفعل ٠

سابعا : ديناميات أنساق الفعل ٠

ثامنا : التدريج السبرنطيقى ٠

النظرية العـامة فى الفعل

طور بارسونز بالتدريج تصـورا خاصا عن موضوع علم الاجتماع وموقفـه بين العلوم الاجتماعية · ولقـد وجد بعض علمـاء الاجتمـاع صعوبة بالغة فى توضيح حدود عـلم الاجتماع ، وتحديد موضوعاته ، ووصف علاقاته بفروع المعرفة الاخـرى وفى رسم خريطة عامة للعلوم الاجتماعيـة · ويمكن القول بأن بارسونز قـد قدم ضربا من ايكولوجيا علم الاجتماع ، ذلك لانه سعى جاهدا لأن يضعه داخـل « بيئة » العلوم الأخـرى التى تدرس الانسان ، ولأن يحلل العـلاقات بين هـذه العلوم جميعـا · ومن ثم فان أعمال بارسونز تتعدى حدود علم الاجتماع لأنها تهتم أساسا بالعلوم الاجتماعية ككل · ودائما ما يصف بارسونز نفسـه على أنه باحث فى علم الاجتماع ، ولـكن من الواضح أن أعماله لا يمكن أن تدخل فى مجال علم الاجتماع فقط ·

ولذلك يجب دراسة أعمـال بارسونز من خلال منظور شامل ، اذا ما كنا نريد أن نبرز اكثر جوانبهـا أصالة وجسارة · ولهـذا فان هـذا الفصل يبـدأ بتتبـع أعلى مستويات التحليل عنـد بارسونز ، وأعنى **النظرية العـامة فى الفعل** · ومن ثم سوف يصبح بامكاننا أن نتتبع فى فصـول قادمة النظرية السوسيولوجية لتالكوت بارسونز داخـل منظور عـام(١) ·

أولا : فكرة الفعـل الاجتماعى

تعتبر فكرة الفعل الاجتماعى Social action ـ والتى قدمها بارسونز فى اطار شامل ـ البداية لنظريته برمتها · وهى فكرة لا تظهر فى تعريف محـدد ودقيق الى درجة تثير قنوط قراء بارسونز · مع أن بارسونز قد شرح مرارا وتكرارا وبطريقة واضحة ما يعنيه بهـذه الفكرة · الفعـل الاجتماعى ـ بالمعنى الذى استخدمه به بارسونز هو كل ضروب السلوك

البشرى التى تدفعها وتوجهها المعـانى التى يكونهـا الفاعل عن العالم الخارجى ، وهى معانى يأخـذها فى اعتباره ويستجيب لها · وبناء على ذلك فان الخاصية الجوهرية للفعل الاجتماعى هى حساسية الفاعل لمعانى الأفراد والأشيـاء من حوله ، وادراكه لهـذه المعانى وردود فعله تجـاه المؤثرات التى تنقلها ·

وما دام الفاعل الاجتماعى يعرف من خلال ما يوجد به من معنى ، فانه يجب أن يفسر تفسيرا ذاتيـا من جانب الفـاعل · ويشتمل التفسير الذاتى على ادراك الفاعل للبيئـة ، والمشـاعر والأفـكار والدوافع التى تشكل أفعاله ، وردو فعل الأخرين تجاه هـذه الأفعال · ويجب أن نؤكد على أن الفاعل الذى نتحـدث عنـه يمكن أن يكون فردا ، أو جماعة ، أو تنظيما ، أو اقليما معينـا ، أو مجتمعا برمته ، أو حضـارة · **لقد تجنب بارسونز الخلط بين الفعل الاجتماعى والسلوك الفردى** · وحاول ـ على العكس من ذلك ـ أن يعمم الفكرة بحيث تنسحب على أى كيان ـ سواء أكان فردا أو جمـاعة ـ يمكن أن يفسـر سلوكه فى ضـوء المعانى التى يشتمل عليها فعله ·

وفضلا عن هذا ، فان فكرة الفعل الاجتماعى لا تأخذ فى اعتبارها وجهة نظر الفاعل الذاتية فقط · بل على العكس فان الانتباه الى دراسة الذاتية يؤدى الى تحليل الفعل الاجتماعى فى ضوء ثنائية الفعل والموقف، وهى ثنائيـة هامة فى نظرية بارسونز فى الفعـل · فالفـاعل فى نظـر بارسونز هـو كائن يعيش موقفـا معينـا being-in-a-situation ، لأن فعله ما هـو الا نتاج لادراكه لمركب من الاشـارات التى يتلقاها من بيئته ويستجيب اليها · وبيئة الفاعل الفرد ليست البيئة الفيزيقية المحيطة به فقط ـ كالموضوعات المادية ، والظروف المناخية ، والطبيعة الجغرافية والجيولوجية للمنطقة ـ وانما تضم أيضا جهـازه العضوى البيولوجى · ويشعر الفاعل بتأثير وأهمية هذه الموضوعات ، ويأخـذها فى اعتباره ، ويطـور بعض المشاعر بصددها ، ويستخدمهـا فى تحقيق الغايات التى ينشدها من هـذه الأشياء · وتفترض كل هـذه العلاقات بالبيئة الفيزيقية

وجـود مجمـوعة من التفسيرات يدرك الفاعل من خلالهـا الواقع وعن طريقها يوجه أفعاله ٠

ولكن أهم الموضوعات على الاطلاق فى بيئة الفاعل هى الموضوعات الاجتماعية ـ وفى المحل الأول منهـا الفاعلين الآخرين ٠ فمن خلال هذه الموضـوعات الاجتماعيـة يصير الفعـل الاجتمـاعى الى تفاعل ٠ وبناء على ذلك يشتمل تحليل ذاتيـة الفاعل على وجهين : فبجانب ذاتيـة الأنا ego توجد ذاتية الآخر alter الذى قد يكون فردا أو جماعة ٠ ولقد حاول بارسونز فى كل أعماله أن يوضح تعقـد العلاقات الاجتماعيـة بين البشر ٠ ويعتبر التفاعل بين فاعلين أو أكثر وما ينطوى على هـذا التفاعل من ذاتية أحد المحاور الأساسية فى نظرية بارسونز ٠

وهناك فئـة أخرى من الموضوعات الاجتماعية أكد بارسونز على أهميتهـا القصـوى وهى الموضوعات الثقافيـة والموضوعات الرمزية ٠ فالفعـل الاجتماعى لابـد أن يتضمن بالضرورة جانبـا رمزيا ، ما دام فعـلا ذا معنى ٠ فالفـاعل يستطيع من خـلال الاشـارات والرموز أن يتعرف على بيئتـه وأن يخبرها ويقيمها ويتحكم فيها ٠ وتعتبر الرمزية من الأشياء الجوهرية فى التفاعل الاجتماعى لانهـا تحقق الاتصال بكل صـورة ٠ فعن طريق الاتصـال يستطيع الفاعلون أن يرتبطوا بعضـهم بالبعض الآخر ٠ وبناء على ذلك فان الفعل والتفاعل يظهران داخل عالم رمزى واسع ، يأخـذ ، داخله كل فعـل معنى معينـا بالنسبة للفـاعل وللآخـرين ٠

وهناك وظيفـة أخرى للرمزية فى الفعـل الاجتماعى مؤداها أنها تساهم فى خلق قواعد السلوك ، والمعايير والقيم التى تقـود الفاعل فى توجيهه لفعله ٠ فالمحقق أن المعايير والقيم ذات طبيعة رمزية بالضرورة ٠ فهى أولا تجعـل سـلوك الفاعلين قابلا لأن يفهم من جانب الآخـرين ٠ فالفعل البشرى يصبح ـ بفضل المعايير والقيم التى تتصل به ـ أقل غموضا

بالنسبة للآخرين وبالنسبة للفاعل نفسه ، لأنهم يستطيعون جميعا أن يفهموا معناه ، وتوجهه واستمراريته · **ثانيا** : يصبح الفاعل من خلال المعايير والقيم قادرا على أن يفسر الموقف وأن يحدد المعالم والحدود والقوى التى يجب أن يأخذها فى اعتبارها فى سلوكه · **ثالثا** : تزود المعايير والقيم الفاعل بالأهداف والوسائل التى توجهه كما انها تعطى لأفعاله معنى معينا بالنسبة لنفسه وللآخرين ·

وبناء عليه فان الفعل البشرى يرتبط ـ كما اكد بارسونز ـ بمجالين ليس لهما خصائص الفعل non-actionولكنهما يشكلان نوعين مختلفين من القيود عليه · الأول هو البيئة الفيزيقية ، التى تشتمل على جوانب من الواقع كالمناخ ، والمصادر الطبيعية ، والأدوات والتقنيات المتاحة ، والتركيب البيولوجى للفرد ، ومعطيات الوراثة والخصائص المزاجية · وهذا النوع من القيود مألوف لدى كل الكائنات الحية وهو يشكل مجموعة من الظروف تعتمد عليها كل الافعال · أما المجال الثانى من القيود فيتعلق بالبيئة الرمزية والثقافية وهى البيئة التى تحدد الاهداف التى يجب السعى الى تحقيقها والوسائل الملائمة التى تؤدى الى تحقيق هذه الاهداف ، وتقيم الحدود التى لا يجب أن يتخطاها الفعل ، وتحدد الأولويات والاختيارات الممكنة · والمستوى الثقافى هو الذى يكسب الفعل البشرى خاصية التفرد بين ضروب الافعال المختلفة · فالفعل البشرى يختلف عن كل أنواع الأفعال الأخرى لأنه ذو طابع معيارى رمزى ·

ونستنتج مما سبق أن الفعل الاجتماعى الذى أهتمت به أعمال بارسونز يتكون من أربعة عناصر :ـ

١ ـ فاعل ذاتى subject-actor وهو يمكن أن يكون فردا أو جماعة أو مجموعة من الأفراد ·

٢ ـ موقف situation ويتكون من الموضوعات الفيزيقية والاجتماعية التى يرتبط بها الفاعل ·

٣ ـ الرموز symbols . ومن خلالها يرتبط الفاعل بالعناصر المختلفة داخل الموقف وما تحويه من معانى ٠

٤ ـ القواعد rules المعايير norms والقيم values التى تتحكم فى توجيه الفاعل ـ بمعنى علاقات الفاعل بالموضوعات الاجتماعية وغير الاجتماعية فى بيئته ٠

ثانيا : انساق الفعل الاجتماعى

فى اعتقاد بارسونز أن كل العلوم الاجتماعية تدرس الفعل الاجتماعى بالمعنى الذى ذكرناه توا ٠ ولكن تظهر هنا مشكلة أخرى ٠ فلكى تصبح دراسة الفعل الاجتماعى دراسة علمية بأدق معانى الكلمة فمن الضرورى ـ كما يذهب بارسونز ـ أن نفترض **أن الفعل البشرى يكشف دائما عن خصائص النسق** System .

ولقد ذكرنا فيما سبق أن بارسونز كان يعتبر فكرة النسق فكرة جوهرية فى العلم ٠ ولقد اقتنع بارسونز بهذه الحقيقة من خلال أعمال فلفريدو باريتو وتلميذه ومفسره ل ٠ جى هندرسون ٠ فمنذ كتاباته الأولى وخلال كل أعماله ، بحث بارسونز عن العناصر النسقية فى الفعل البشرى بكل أنواعه ، والشىء الوحيد الذى يعتقد فيه بارسونز اعتقادا صادقا هو أن العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تكتسب صفة العلمية إلا من خلال اعتمادها على التحليل النسقى ، كما فعلت العلوم الفيزيائية وعلم البيولوجى ٠

والحقيقة أن الفعل البشرى يتلائم جيدا مع التحليل النسقى ٠ فكل الافعال يمكن النظر اليها على أنها مركب من وحدات السلوك الصغرى(*) unit-acts التى تضم فاعلا أو اكثر ؛ ويمكن تفتيت هذه

(*) تعنى وحدة السلوك unit-act سلوكا فعليا ملموسا ، وهى الصورة المصغرة للفعل الاجتماعى والنسق الاجتماعى ٠ فكل وحدة سلوكية تضم نفس العناصر التى يتكون منها الفعل الاجتماعى وهى : الفاعل (فرد ـ جماعة مجتمع) ـ الهدف ـ والموقف (الوسائل والظروف المحيطة) ـ ثم المعايير ٠ ومن ترابط هذه الوحدات المختلفة يتكون الفعل الاجتماعى وتتشكل =

الأفعـال الى الايماءات ، والكلمات ، ومظاهر الأداء أو التعرف · واذا ما نظرنا الى هـذه الاشياء مرة أخرى نظرة كلية ، فانهـا تكون ـ على سبيل المثـال ـ دوراً اجتماعيـا (دور الأدب فى الأسـرة أو دور مدير المكتب) أو سلسلة من التفاعل بين فردين أو أكثـر · ولقـد تم استخدام هذه الأساليب الفنيـة فى التحليل والتركيب استخداما امبيريقيا فى عدد من الدراسات الجيـدة عن الجماعات الصغيرة · وقـد استنبط روبرت بيلز R. Bales مجموعة من المقولات التى تسمح بتفتيت أى مشـاركة فى مناقشة جماعيـة الى وحـدات صغيرة ، وتصنيف هـذه الوحدات ، ثم اعادة ترتيبهـا وتركيبها لتكشف عن أشكال من التفاعل لا تظهر للعيـان للوهلة الأولى(٢) · ومثـل ذلك يمكن أن يقـال عن الفعـل ، فعـلى أى مستوى من مستويات الواقع يوجد الفعـل بصـورة مركبـة ناتجة عن تأليف بين عناصر مختلفة يمكن تفتيتهـا من خـلال التحليل · وفى نفس الوقت ، فلا يمكن تصور أى فعـل يحدث فى عزلة · انه يتصـل دائمـا بأفعال أخرى يكون معها كلا أكبر · وهكذا فان دور الأب فى الاسـرة هو عنصر واحـد فى مركب من الأفعال التى تكون الأسـرة · والأسرة بدورها تعتبر جزءاً من اطـار أكبر يطلق عليـه القرابة kinship وهكـذا وكنتيجة لذلك فان أى فعـل يمكن النظر اليـه على أنه مركب من وحدات السلوك الصغرى unit-acts وكعنصر فى مركب أشمل ·

ويعضد هـذا الأعتماد المتبـادل بين وحدات الفعـل فكرة نسق الفعـل ، ما دام أى نسق يشتمل على علاقة متبـادلة بين مجمـوعة من الأجزاء تكون كلا واحـدا غير أن هذا القول ليس كافيـا لتبرير ما قيل عن أنساق الفعل · فمفهوم بارسونز عن النسق يعتبر شيئا أكثر تعقيدا من ذلـك · فهـو يذهب الى أن النسق يجب أن تتوفر له ثلاثة شـروط :

= الأنساق الاجتماعية التى يتجه كل منها نحو تحقيق غاية معينة تساهم فى استمرار المجتمع · انظر حول تعريف « وحدة السلوك » الفصل الأول والثانى والفصل الأخير من كتاب بارسونز « بنـاء الفاعل الاجتماعى »

T. Parsons, The Structure of Social action, The Free Press, New York, 1937.

المترجمـان

الأول شرط **بنائي** : فوحدات النسق والنسق نفسه يجب أن يشبع بعض المتطلبات التنظيمية ، وأن تكون فى النهاية مجموعة من الأجزاء أو العناصر الثابتة نسبيا والتى يمكن أن تؤخذ كنقطة انطلاق فى التحليل النسقى · وكما ذهب بارسونز فان الأنماط المعيارية ـ والتى تظهر فى أعلى مستوى للتجريد فى متغيرات النمط ـ تقوم بهذا الدور فى أنساق الفعل · أما الشرط الثانى فانه يتضمن فكرة **الوظيفة** : فلكى يوجد نسق الفعل ويحافظ على هذا الوجود يجب أن تشبع بعض حاجات النسق الأساسية ·وهذه هى مشكلة المستلزمات الوظيفية Functional Preroquisites أو الأبعاد الوظيفية لأنساق الفعل · أما الشرط الثالث فانه يتعلق **بالديناميات** الداخلية للنسق : فالنسق بطبيعته يتضمن تنويعات وتغيرات لا تظهر من خلال الصدفة ولكنها تظهر من خلال بعض المبادىء والقواعد ·

وتتكون النظرية العامة فى الفعل ـ أساسا ـ من تحليل هذه الجوانب الثلاثة لأنساق الفعل · وسوف نفحص الآن بشىء من التفصيل معالجة بارسونز لكل منها ·

ولكن تجدر الاشارة أولا الى شىء هام · ففى اعتقاد بارسونز أن نسق الفعل ليس شيئا ملموسا ، كالأسرة او المصنع · ولكنه ـ وفق استخدامه له ـ مجرد أسلوب للصياغة التصورية والتحليل ؛ انه يزودنا بالوسائل التى تمكننا من اعادة صياغة الواقع بأسلوب عقلى ، وطريقة لفهم الأشياء ـ انه باختصار أداة استرشادية · فلا يوجد فى الواقع شىء ملموس يمكن الاشارة اليه بالقول بأن « هذا هو نسق الفعل » · ومع ذلك فان أى فعل على أى مستوى من مستويات الواقع ـ سواء أكان سلوك فردين أو صراعا طبقيا أو خلافات دولية ـ يمكن تحليله كنسق · وأن فكرة نسق الفعل فكرة تتصف بالكثير من العمومية · ولا تتلاءم بطريق مباشر مع أى شىء فى الواقع ، لأنها مجرد أداة تحليلية تطبق على مستويات عدة ·

ثالثا : الأنماط الثقافية ـ العناصر البنائية لأنساق الفعل

اذا ما رجعنا الى المكونات الرئيسية لأى نسق من أنساق الفعل نجد عنصرين جوهريين ـ فاعل وموقف ، ويتكون الموقف من الموضوعات الفيزيقية والاجتماعية الخارجية · فنسق الفعل يعنى ـ فى أكثر صوره تبسيطا ـ **تنظيما للعلاقات التفاعلية بين الفاعل والموقف المحيط به** · والمحقق أن التفاعل بهذا الشكل لا يظهر دائما · فالتفاعل الحقيقى يضم فاعلين آخرين (موضوعات اجتماعية بلغة بارسونز) فى فعل مكمل وتأثير متبادل · وفى حالة الموضوعات الفيزيقية فان الفاعل يسلك تجاهها ، بأن يكيفها لأغراضه ، أو يكيف نفسه لها · أما بالنسبة للموضوعات الرمزية والثقافية فان الفاعل يستخدمها للاتصال بالفاعلين الآخرين ، أو يعتبرها موجها لفعله نحو الموضوعات الفيزيقية والفاعلين الآخرين · ولكن هذه التقسيمات لا تغير من طبيعة الفعل الاجتماعى كما فهمه بارسونز ·

واذا ما أرجعنا نسق الفعل الى عناصره الأولية ، فان السؤال الأول الذى يجب أن نضعه فى اعتبارنا هو كيف توجد العلاقات بين الفاعل والموضوعات التى تشتمل عليها بيئته وكيف تستمر هذه العلاقات فى الوجود · بعبارة أخرى ما هى العوامل التى تكون بناء الفعل والتفاعل بحيث يستمر فى الوجود فى حالة ثبات نسبى ؟

ان الشىء الذى اختلف عليه الكثير من نقاد بارسونز هو افتتانه بمفهوم **النظام العام** Order · فقد أصبح الصراع والتغير من الأشياء التى تحظى بالاهتمام فى تحليل الفعل ، وذلك من خلال تأثير ماركس والمنظرين الاشتراكيين · أما بارسونز فقد حظى بشهرة الباحث الاجتماعى المحافظ الذى يهتم بالمحافظة على **الوضع القائم** Status quo من خلال تحليله للأسس الاجتماعية التى يقوم عليها النظام العام · ولذلك فان نقادة قد ترجموا ما يعتبر بحق مشكلة تحليلية (يعنى مشكلة النظام العام) الى أداة ايديولوجية · ولكنهم تناسوا أن النظام الاجتماعى

العـام يعتبر ـ بالنسبـة لبارسونز ـ **حقيقة وليس مشكلة**(*) · والمحقق أننـا يجب أن ندرك ـ حتى من خـلال الملاحظة السطحية ـ أن الفعـل البشرى ـ سواء أكان سلوكا فرديا أم جماعيا ـ ليس سلوكا عشوائيا · فهو لا يتصف بالفوضى أو لا يمكن التنبؤ به · فالحياة الاجتماعية ليست حربا يدخل فيهـا الكل ضد الكل(**) · فهناك قدر من النظام العام واضح للعيان فى سلوك الفرد أو الجمـاعة ، ومن ثم فان الفاعل قادر على أن يتنبأ بسلوكه وبسلوك الآخرين من حوله على نحو دقيق · ولكن هذا النظام العـام ، والذى يمكن أن يظهر بصور عديدة يظـل كمشكلة يجب حلهـا باستمرار · وسيظل السؤال قائما بشكل دائم : ما هى أسس النظام العام فى الفعـل الاجتمـاعى ؟ فالشىء الذى يدعو الى الدهشـة حقـا ليس وجـود الصراعات أو الاضطرابات ، ولكن وجـود قدر من النظام العام فوق أى مظاهر لسوء التنظيم الاجتماعى فى الفعل الفردى أو الجماعى ·

(*) ذهب الكثير من النقاد الى أن بارسونز ـ مثله مثل سابقيه من علماء الاجتماع خاصة كونت ودورتايم وماكس فيبر ـ قـد حاول أن يجد حلا لمشـكلة النظام العـام فى المجتمـع الراسمالى · وبذلك يعتقد هؤلاء النقاد بأن كل التطورات التى طرات على علم الاجتماع بدءا من كونت حتى بارسونز ما هى الا تطوير لفكرة القهر الخارجى التى طورها توماس هوبز صاحب مشكلة النظام الشهيرة · وذهب بعضهم الى أن علم الاجتماع قـد ارتكز حول هـذه المشكلة بحيث يمكن تحليله من خلالها · انظر حول علم الاجتماع ومشكلة النظام :

Percy Cohen, **Modern Social Theory**, Hienman, London, 1969.

وانظر تحليلا نقديا لارتباط علم الاجتماع بمشكلة النظام فى المصدر التالى : أحمـد زايد ، علم الاجتماع بين الاتجـاهات الكلاسيكية والنقـدية ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ١٩٨١ ·

المترجمـــان

(**) هـذه عبارة توماس هوبز الذى كان يتصور أن الحياة الاجتماعية بها قدر كبير من الخداع والقوة ، لأن الانسان تتملكه غريزة واحدة هى غريزة حب البقاء ومن ثم فهو يحقق البقاء والطمأنينة لنفسه على حساب الآخرين ولا يتورع عن استخدام الخداع أو العنف · وبذلك تتحول الحياة الى حرب يدخل فيها الكل ضد الكل awar of all aganist . وتظهر هنا مشكلة النظام ، فلا بد لهذا المجتمع غير المنظم من قوة تحقق له قدرا من النظام · وقـد رأى هوبز أن هـذه القوة هى الدولة التى تقهر الأفراد بحيث يخضعون لها خضوعا كاملا ومن ثم يتحقق النظام المنشود · انظر المرجع السابق مباشرة ·

المترجمـــان ·

واقتفى بارسونز فى معالجته لمسكلة النظام اثر الفلاسفة العظام الذين درسوا طبيعة المجتمع البشرى · ولقد وضع بارسونز نفسه مباشرة أمام تراث هوبز ، ولوك وروسو ، وميل · وذهب بارسونز ـ مثله مثل هؤلاء الفلاسفة ـ الى أن النظام العام شىء لايجب التسليم به ، بل يجب تفسيره · غير أنه وجد أن تحليلات هؤلاء الفلاسفة غير كافية · فالنظام ليس محصلة الالتقاء التلقائى العرضى بين المصالح المختلفة كما ذهب لوك · كما أنه ليس نتيجة للعقد الاجتماعى كما اعتقد روسو · وليس محصلة خضوع كل الناس لسلطة واحدة لتجنب الصراع الدائم كما ذهب هوبز · أن كل هذه التفسيرات تعانى نقطة قصور جوهرية : فقد قامت على الافتراضات التى مؤداها أن الفعل البشرى تحركه المصلحة الذاتية ، وأنه يحدث للقضاء على الفردية والمصالح المتفرقة · ولقد ضعف هذا التفسير السيكولوجى المبسط الذى ظهر من خلال مذهب المنفعة الكلاسيكى Classical Utilitarianism وأسهم فى هذا الاضعاف أعمال الرواد الأوائل للعلوم الاجتماعية ، الذين فتحوا الطريق أمام التفسير العلمى الأصيل للنظام العام · واعتبر بارسونز أن اعادة تفسير النظام العام من خلال الفعل الاجتماعى يمثل الاسهام الرئيسى للعلوم الاجتماعية فى النصف الأول من القرن العشرين ·

وغالبا ما كان بارسونز يركز على مظاهر الالتقاء الغريبة بين أعمال المنظرين المختلفين ، وخاصة بين فرويد ودوركايم · فهذان الباحثان يلتقيان وتكمل أعمال كل منهما الآخر ، رغم أن كلا منهما بدأ من موقف مختلف ، ورغم أن كلا منهما لم يكن يعى بأعمال الآخر أو يأخذها فى الاعتبار · فكل منهما أوضح أن الفعل البشرى يقوم على **قواعد ومعايير وأنماط** تكون بناءه وتمنحه اطارا متسقا · وتظهر قواعد السلوك فى أعمال فرويد فى صورة الأنا الأعلى super-ego الذى يتكون من الجزاءات والرموز ذات المعنى التى تكون الضمير الأخلاقى للشخصية · أما دوركايم فقد أطلق على القواعد والأنماط اسم « **التصورات الجمعية** » أو **الضمير الجمعى** · « والحقيقة الاجتماعية » social fact فى نظر دوركايم ما هى الا فعل الفرد الذى يخضع لبعض القيود ·

وهناك فرق هام بن وجهات نظر فرويد ودوركايم ، وهو فرق يجعل من عمـــل كل منهما مكملا للاخـــر فى نفس الوقت وينحصـر هـــذا الفرق فى أن الأنمـاط الثقـــافية ـ فى نظـر فرويد ـ تكمن فى بنـــاء شخصيـة الفـرد ، أما بالنسبـة لدوركايم فان **التصـــورات الجمعيـة** توجـد فى قلب المجتمع • فالأنمـاط الثقافيـــة فى نظـر فرويد توجـد بدرجة استدماج الافراد لهـا ، وهى تشكل جزءا مكملا **للتنظيم النفسى** للشخصيـة • أما بالنسبة لدوركايم فان هـــذه الأنمـاط توجد بدرجة **اتصهارها داخل نظم المجتمع** ، بحيث يمكن أن تمارس قيدا خارجيا على الوعى الأخلاقى للأفراد •

وهذان الاتجاهان ليسا متناقصين • فقـد حاول بارسونز أن يوضح انهما يكملان بعضهما وأنهما وجهـان لنفس العملة • وبتعبير اكثر دقة ، فان أيامنهما يحتـاج الى الآخـر ، فكل واحـد سوف يجـد تدعيما من الآخر • فالأنماط الخارجيـة التى تستدمجها الشخصيـة لتصبح الأنا الأعلى (الذى ينظم سلوكها) تشبه الأنمـاط التى تنصهر داخـــل نظم المجتمع ، بقدر مشاركة مجموعة كبيرة من الأفراد فيهـا • وبالعكس فان الأنماط الثقافية تنصهر داخـل نظم لأن مجمـوعة كبيرة من الأفراد قد استدمجتها • وبهـذا يختلط مفهوم فرويد عن الضمير الأخلاقى مع مفهوم دوركايم عن الضمير الجمعى ؛ فالأنا الأعلى هـو النظير الفردى للضمير الجمعى الذى يوجد داخل المجتمع •

وفى ضوء هـذا الالتقـاء بين المنظـور الفردى والمنظور الجمعى رأى بارسونز حل مشكلة النظام العـام الذى قدمه كل من هوبز ، ولوك ، وروسو ، وميل • ان أساس النظام العام يكمن فى بنـاء انساق الفعل ، وفى الأنمـاط الثقافية ، والمعـايير ، والقيم التى تكتسب معنى معين من جانب الفرد أو الجمـاعة ، فى ضـوء الحقيقة التى مؤداها انهـا قـد استدمجت فى الشخصيـة وانصهرت فى نفس الوقت فى نظـم المجتمع وثقافتـة • ولخص بارسونز بنفسه خطه الفكرى فى هـذا الصـدد على النحو التالى :ـ

« اعتقد أن أساس نظرية الفعل هو بناء أنساق الفعل الذى يتكون من الأنماط ذات المعنى الثقافى التى انصهرت داخل النظم (فى الأنساق الاجتماعية والثقافية) · واستدمجت (فى داخل أنماط الشخصية والكائنات العضوية) · ولقد اكد على هذه القضية ـ التى قد لا تبدو ظاهرة من خلال الحس البديهى المشترك ـ التاريخ الطويل والمعقد للنظريات السلوكية والاختزالية فى تفسير السلوك البشرى »(٣) ·

ويعد هذا الأساس النظرى دعامة رئيسية فى أعمال بارسونز لأنه يفسر التقاء الجوانب الفردية والجماعية موضحا أن هذا الالتقاء يقوم على الطابع المزدوج للأنماط الثقافية ، التى توجد فى عقول الأفراد وفى عالم الرموز داخل المجتمع · وهكذا اذا عدنا الى عناصر أنساق الفعل ، فاننا يمكن أن نجد نفس الأنماط فى الفاعل والموقف ، لأنها استدمجت من خلال الفاعلين وانصهرت فى شكل نظم داخل الثقافة والأبنية الاجتماعية ·

رابعا : متغيرات النمط فى انساق الفعل

تعمل الأنماط الثقافية ـ كما عرفنا من الفقرة السابقة ـ على تكوين بناء أنساق الفعل · ولكن بارسونز ذهب بالتحليل الى ابعد من ذلك عندما أوضح أن هذه الأنماط نفسها تتخذ طابعا بنائيا بطريقة معينة · فمن طبيعة الأنماط الثقافية أنها تدفع الفاعل (أو تجبره) على ان يختار بين الأشياء ويقيمها بحيث يجبر على أن يتخير ـ بمعنى أن يختار شيئا معينا أو ضربا معينا من ضروب السلوك دون الأخرى · وبناء على هذا فان الفعل الذى توجهه القيم هو بالضرورة اختيار لشىء معين ورفض لشىء اخر ، وهو حركة فى اتجاه معين وابتعاد عن الاتجاه الآخر ، انه قبول أو رفض · وباختصار فان الازدواجية والتناقض كامنان فى عالم القيم ·

ولقد القى علماء الاجتماع السابقون على بارسونز الضوء على هذه الازدواجية · وظهر هذا بصفة خاصة عند تونيز الذى طور نظرية تحوى نوعين رئيسين من التنظيم الاجتماعى : الجماعة والمجتمع ، أو علاقات

الجماعة وعلاقات المجتمع الكبير · وكل من هذين النمطين من انماط العلاقات الاجتماعية يحوى مجموعة من الأنماط والقيم الخاصة بالطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية · وكان تونيز نفسه يفضل أشكال الحياة الاجتماعية القائمة على علاقات الجماعة ، حيث كان يرى فيها روحا أخلاقية سامية · ولقد عاد بارسونز الى ثنائية تونيز ، واعتبرها أول قضية غير مكتملة عن التمييز البنائى فى تحليل الفعل · وينحصر اعتراض بارسونز الرئيسى على هذه الثنائية فى أنها تبالغ فى التعميم ، بحيث تهمل أبعادا أخرى عديدة تحتاج الى توضيح(٤) · ولقد ظهر هذا جليا لبارسونز فى أول بحث امبيريقى أجراه ، وهو عبارة عن تحليل للدور الاجتماعى للطبيب · فقد أوضح أن مهنة الطب تحتاج فى بعض الأحيان الى علاقات الجماعة وفى أحيان أخرى الى علاقات المجتمع الكبير · وهكذا فان العلاقة بين الطبيب والمريض تقوم على على مصلحة ترتبط بعلاقات الجماعة بمفهوم تونيز ، ذلك لأن هدفهما ـ الذى يحكم كل علاقتهما ـ هو صحة المريض وشفاؤه · ولكن مع ذلك فان علاقة الطبيب والمريض يجب أن تقوم على علاقات عامة ذات طابع مجتمعى بمفهوم تونيز ؛ فالمريض يجب أن يعتبر علاقته بالطبيب علاقة تخصصية وليست علاقة انتشار ـ بمعنى أن العلاقة تقوم على أساس أنه مريض وليس صديقا ·

وبهذا فان محاولة تونيز التاليف بين علاقات الجماعة وعلاقات المجتمع ليست ذات بعد واحد ، كما اعتقد ، وانما متعددة الأبعاد · ومن الأهمية أن نحلل هذه الأبعاد المختلفة المتضمنة فى هذه الثنائية · لقد نظر بارسونز الى هذه الأبعاد على أنها سلسلة من المعضلات dilemmas تواجه أى فاعل ، عليه أن يجلها أثناء توجيه فعله · فلا توجد معضلة واحدة كما اعتقد تونيز ولكن توجد معضلات عدة · ومع ذلك فان هذه المعضلات ليست متناهية العدد ، لأنه فى كل مجتمع وفى كل علاقة اجتماعية لا يوجد سوى عدد قليل من الاختيارات الجوهرية أو الأساسية · ولقد تردد بارسونز فى تحديد هذه المعضلات بأنها أربع أو

خمس أو ست معضلات(٥) ، ولكنه اكد فى النهاية انه يستطيع تمييز أربع معضلات فقط · وكل معضلة من هذه المعضلات تطرح أمـــام الفـــاعل استجابتين · ولقد اطلق بارسونز على هذه المعضلات « متغيرات النمط » : Pattern variables .

وكما أشرنا آنفا ، فان بارسونز قد بدأ فى تطوير فكرة متغيرات النمط فى سياق تحليله للأدوار المهنية · ويمكن ملاحظة الخطوط العريضة الأولى بهذه الفكرة فى محاولته لأن يجد طريقة للتمييز بين المهن العقلية وعالم الأعمال الحرة أفضل من الطريقة الشائعة · فبدلا من أن نتحدث عن المهن العقلية فى ضوء « عدم المصلحية » disinterestedness وعن عالم الأعمال الحرة فى ضوء السعى نحو المصلحة الذاتية ، حاول بارسونز البحث عن متغيرات أخـــرى أقل نفعيـــة واكثر اتصـــافا بالتفســـير السوسيولوجى(٦) · وبعد ذلك استخدم فى كتابه «النسق الاجتماعى»(٧) نفس المتغيرات فى صورة معدلة فى تحليل مهنة الطب نفسها ؛ واستخدمت متغيرات النمط هنا كمفهومات سوسيولوجية بحته · ولكن فى كتـــاب « نحو نظرية عامة فى الفعل » ظهر جليـــا أن متغيرات النمط يمكن أن تنطبق على مستويات أشمل ، وأنهـــا تخص أكثر مســـتويات التحليل عمومية ــ وأعنى النظرية العامة فى الفعل ·

وفيما بين عام ١٩٣٧ حين ظهر كتاب « بنـاء الفعل الاجتماعى » وعام ١٩٥٣ حيث ظهر كتـاب « أوراق عمـل فى نظرية الفعـل » كانت متغيرات النمط تمثـل المحور الرئيسى للنظرية العـامة فى الفعل عنـد تالكوت بارسونز · ولقد قدم بعد ذلك عناصر جديدة سوف نناقشهـــا فيما بعـد ، ولكن متغيرات النمط ظلت تلعب دورا رئيســـيا فى نظرية بارسونز · وهنا نوضح كيف شرح بارسونز بنفسه متغيرات النمط فى أحدث كتاباته ·

فأولا : قد يحكم الفاعل على الموضوع الاجتماعى أو الفيزيقى فى ضوء معايير عامة تنطبق على كل الموضوعات وهو بذلك يسلك فى ضوء

متغير العمومية Universalism · ومن الناحية الاخرى فانه قد ينظر الى الخصائص التى تميز الموضوع عن غيره من الموضوعات ، ويقيم الموضوع لذاته ، وفقا لمعايير خاصة بهذا الموضوع والاطار الذى يوجد فيه · وهو بذلك يسلك وفق متغير الخصوصية Particularism · فالمدرس ـ على سبيل المثال ـ يحكم على تلاميذه ويقيم أراءهم وفقا لبعض المعايير العامة التى تعطى لاحكامه أساسا عادلا · وعلى العكس من ذلك ، فان الأب يحكم على طفله طبقا لمعايير خاصة بطفله تختلف عما اذا كان مدرسا له · ولا يمنع هذا من أن تتدخل فى حكم المدرس درجة من الخصوصية ، كما أن الأب قد يقيم أطفاله وفق معايير عامة الى حد ما · ولكن الاتجاه العام فى حالة المدرس هو العمومية ، أما فى حالة الأب فهو الخصوصية · وهذا الاختلاف هو الذى اعتبره بارسونز استجابة مختلفة لمعضلة معينة ·

ثانيا : يستطيع الفاعل أن يحكم على موضوع اجتماعى أو فيزيقى فى ضوء ما يفعله هذا الموضوع أو ما ينجزه أو ما يؤثر به (فى البيئة) · فى هذه الحالة يكون حكمه قائما على أساس الانجاز Performance (أو الأداء) الذى يقوم به الموضوع · ومن الناحية الأخرى فان الفاعل يمكن أن يضفى أهمية على الموضوع فى ذاته ، منعزلا عن انجازه أو فائدته بالنسبة للفاعل · وفى هذه الحالة فان الحكم يكون قائما على نوعية الموضوع(٨) quality .

ثالثا : يجب أن يختار الفاعل بين الحياد الوجدانى effective neutrality وبين الوجدانية effectivityفى علاقاته بالموضوعات الموجودة فى الموقف الذى يسلك داخله · وهو يختار الحياد الوجدانى عندما يطرح مشاعرة وعواطفه جانبا ، من أجل الاستفادة من علاقة غائية instrumental تتجه لخدمة أغراض خارج العلاقة نفسها · وكقاعدة عامة فان العلاقات داخل النطاق المهنى يحكمها الحياد الوجدانى · وتظهر الوجدانية بوضوح فى العلاقات الاجتماعية فى بعض المجالات المحدودة كالأسرة والصداقة ·

رابعا : قد يتصل الفاعل بالفاعلين الآخرين من خلال بعض الأساليب القائمة على التخصص بحيث لا ينخرط معهم انخراطا كاملا · بعبارة أخرى فان الفاعل قد تكون له علاقة بأفراد كثيرين كالزبائن ، والمرضى ، أو العمال · وفى هذه الحالة فان العلاقة تقوم على التخصيص specificity · ومن الناحية الأخرى فانها قد تقوم على الانتشار diffuseness ويعنى أن الفاعل ينخرط فى علاقات كثيرة ، ويرتبط مع الفاعلين الآخرين بروابط متعددة ، ويندمج فى العلاقات كشخص كلى · وفى هذه الحالة فان علاقة المدرس بتلميذه قائمة على مبدأ التخصيص ، أما علاقة الأب بأطفاله فانها قائمة على الانتشار ·

ويمكن أن نلاحظ الآن أن متغيرات النمط الأربعة هذه ما هى الا تطوير لثنائية تونيز · فالعمومية ، والانجاز ، والحياد الوجدانى والتخصيص تقابل علاقات المجتمع عند تونيز ، أما الخصوصية ، والنوعية ، والوجدانية والانتشار فانها انماط طرازية لعلاقات الجماعة بمفهوم تونيز · وتكمن فائدة هذه التقسيمات لثنائية تونيز فى أنها تقسيمات اكثر مرونة ، انها تسمح بتحليل العلاقات الاجتماعية التى تختلط فيها ــ على سبيل المثال ــ مظاهر العمومية ، والانجاز ، والوجدانية والتخصيص · بعبارة أخرى فان متغيرات بارسونز تعمل على توسيع الاستفادة من ثنائية تونيز من خلال تفتيت الأبعاد التى دمجها تونيز ·

وحتى ظهور كتاب « نحو نظرية عامة فى الفعل » (١٩٥١) كان بارسونز يعتبر أن متغيرات النمط هى المكونات الرئيسية لأى نسق من أنساق الفعل · ويعنى هذا أنه نظر الى متغيرات النمط على أنها تمتلك القدرة على التعميم التحليلى · فهى متغيرات يمكن أن تنطبق على سلوك الفرد ، أو سلوك الجماعة ، وعلى تحليل الجماعات الصغيرة أو المجتمع الكبير ككل ، وعلى وصف أفعال الفاعلين الأفراد أو النظم الاجتماعية ·

ومن جهة أخرى ، فان بارسونز قد اعتقد أنه يستطيع أن يقسم

المتغيرات الأربعة الى نوعين ، لأنها لا ترتبط بنفس العنـــاصر فى نسق الفعـــل · فزوجان من هـــذه المتغيرات تتعلقان أساسا بالموضوع الذى يرتبط به الفاعل ، أى بالمعنى الذى يحويه الموضوع بالنسبة للفاعل ونوعيه الحكم الذى يصدره عليه الفاعل · هذه المتغيرات هى متغيرا العمومية والخصوصية ومتغيرا النوعية والانجـاز · وأطلق بارسونز على هذين الزوجين من المتغيرات « متغيرات النمط الخاصة بشكل الموضوع »(٩) ·

أما الزوجان الاخريان وهما متغيرا الانتشار والتخصيص ومتغيرا الوجدانية والحياد الوجدانى ، فانهما يتعلقان بالفاعل ويحددان توجهه نحو الموضوع ونمط العلاقة التى يقيمهما معه · ومن ثم فان بارســـونز أطلق على هذين الزوجين من المتغيرات « متغيرات النمط الخاصة بتوجيه الفاعل ناحية الموضوع » ·

وبذلك فاننـــا نعود الى ازدواجية موقف الفاعل التى تعتبر نقطـــة مركزية فى نسق الفعل · فالمتغيرات الخاصة بشـــكل الموضوع تتصـــل بالموقف والموضوعات الداخلة فيه · أما متغيرات التوجيه فانها تتصـــل بالفاعل · وبهذا نكون قد أوضحنا دور متغيرات النمط فى بناء أنساق الفعـــل ·

خامسا : المستلزمات الوظيفية لأنساق الفعل

اذا كان تحليل بناء الفعل يوضح العوامل التى تسهم فى استقرار النسق ، فان تحليل الأبعاد الوظيفية لأنساق الفعـــل تلقى الضـــوء على العمليات التى تصطرع داخله · ولقد عرف بارسونز وظيفة أى نســـق بأنها « **مركب من الأنشطة يتجه لاشباع حاجة أو حاجات النسق بوصفه نسقا** » · وبهذا فان فكرة الوظيفة كما فهمها بارسونز تعد فكرة جوهرية فى التحليل النسقى · أو على الأقـــل فى تحليل أنساق الفعـــل · وكما أوضح بارسونز بنفسه :

« يعتبر مفهوم الوظيفة مفهوما رئيســـيا فى فهم كل الأنســـاق القائمة · والمحقق أن مفهوم الوظيفة هو النتيجة المنطقية لمفهوم النسق ،

فهو يحدد من ناحية بعض خصائص علاقة النسق بالبيئة ، ويحدد من ناحية أخرى خصائص التباين الداخلى للنسق ذاته »(١٠) ٠

ويكشف هـذا النص عن الطابع المزدوج لتحليل أنسـاق الفعـل والذى دائما ما استخدمه بارسونز ٠ **فأولا : نجـد أن** أى مركب من السلوك يمـكن التعامل معـه كنسق للفعـل (كالدور المهنى أو الطبقـة الاجتماعية مثلا) يكون جزءا من كل أشمل ، يرتبط به بطرق عدة ٠ **لأنه** يعتمد على هذا الكل الأشـمل وفى نفس الوقت يسهم بدرجة معنية فى تكوينا ٠ ومن هذه العلاقة بين الجزء والكل تظهر المجموعة **الأولى** من حاجات النسق ـ وهى تلك الحاجات التى تتصل بعلاقة النسق ببيئته ٠ **وثانيا** « فان نسق الفعـل ذاته يتكون من أجزاء أو وحدات ترتبط ببعضها من خلال عمليتىالتباين والتكامل ٠وتظهر هنا مجموعة أخرى منالحاجات هى تلك التى تتصل بتنظيمه الداخلى ٠

ولكى يستمر النسق فى أدائه الوظيفى ويحـافظ على استمراره ، فانه يجب أن يستجيب لهذين النوعين من الحاجات أو المشاكل ٠ ويعنى ذلك أن النسق قادر على أن ينظم ويولد الأنشطة الضرورية (التى تشبع هذه الحاجات) ٠ وهذا هو مفهوم بارسونز عن الوظيفة ٠ فداخـل كل نسق من أنساق الفعل توجد بعض الوظائف أو مركبات من الأنشطة ، بعضها يرتبط بعـلاقات النسق ببيئته والبعض الآخـر يرتبط بالحاجات التنظيمية الداخلية للنسق ٠

ولقد اقترح بارسونز طريقة أخرى لمعالجة وظائف أنساق الفعل ، تتضح فى تمييزه بين أهداف النسق والوسائل التى يشتقها لتحقيق هذه الأهداف ٠ وأطلق بارسونز على أنشطة النسق التى تتجه لتحقيق الغايات المنشودة (سواء أكانت سلعا أو اشباعات أو مثلا عليا) أطلق عليهـا الأنشطة التحقيقية consummatory ٠ أما الأنشطة التى تعمـل على توفير وسائل اشباع الحاجات واستخدام هذه الوسائل فقد أطلق عليها الأنشطة الغائية (النفعية) instrumental ٠

وهاتان الطريقتان فى معالجة مشكلة حاجات ووظائف الأنسـاق ،

والتى تميز احداهما بين العلاقة الداخليـة والخارجية للنسـق وتميز الأخرى بين الغايات والوسائل ، يمكن ربطهما أو تركيبهما معا · وهكذا يمكن القول بأنه توجد أهداف تتضمن علاقات بالبيئة وأخرى تهتم بالتنظيم الداخلى للنسق وهكذا · ومن ثم فان الاستخدام التلقائى لهذين النوعين من التمييز يكشف عن الحقيقة التالية : **أنه فى أى نسق من أنسـاق الفعـل يجب أن تتوافر اربـع وظـائف لـكى تشـبع الحاجات الأربعـة** الأساسيـة التى حـددها بارسونز · ونسق الفعـل لا يمكن أن يوجـد الا اذا اشبعت هذه الحاجات الاربعة على الاقل اشـباعا جزئيـا واذا ما وجدت الوظائف الاربعة بقدر معين · وهذا هو الذى جعل بارسونز يدعى بأن **الوظائف الاربعة هى مستلزمات وظيفية لأى نسق من أنساق الفعـل** ·

ولقد نظر بارسونز ايضا الى الوظائف الاساسية على انها « ابعاد » أربعة لنسق الفعـل ، وذلك بالمعنى الدقيق الذى تستخدم به الكلمـة فى الفيزياء · بعبارة أخرى ، فان كل وحدة من وحدات السلوك unit acts التى تكون نسق الفعـل يجب أن تستقر فى بعد أو آخر من هـذه الابعاد الأربعة فى أى لحظة من حياة نسق الفعل · واذا ما انفصلت أى وحدة من هذه الوحدات عن موقعها خلال الحيـاة الكلية لنسق الفعل ـ وهو أمر محتمل حدوثه فى الفيزياء ـ فاننا يمكن أن نلاحظها وهى تتحرك مثـل الجسيم (أو الذرة) من بعد الى آخـر ، كلما تغير نسق الفعـل بالتدريج · وفى نفس الوقت فان حركة أى وحدة من وحدات السـلوك تعد فى حد ذاتها عاملا فى تعديل أو تكييف النسق ·

أما هذه الوظائف أو الأبعاد الأربعة لنسق الفعل فانها كالآتى : ـ

أولا : ما أطلق عليه بارسونز **التكيف** adaptation وهو مركب من وحدات السلوك التى تعمـل على اقامة عـلاقات بين النسق وبيئته الخارجية · والبيئة الخارجية لنسق الفعل ، كما عرفها بارسونز ، هى

نسق أو مجموعة أنساق سواء أكانت أنساق فعل (تحوى فاعلين آخرين) أو أنساقا مادية (تحوى عناصر مادية) · ويتكون التكيف عن طريق أخذ المصادر المختلفة التى يحتاجها النسق من أنساق البيئة ، فى شكل تبادل للمنتجات التى تنتج داخل النسق نفسه · واعداد ونقل هذه المصادر لخدمة حاجات النسق · وهذه الوظيفة ـ كما يظهر من أسمها ، تتضمن الأنشطة التى من خلالها يستطيع النسق أن يتكيف مع بيئته ومع الضوابط والضرورات والحدود التى تفرضها هذه البيئة عليه ، وكذلك الأنشطة التى يستطيع النسق من خلالها أن يكيف البيئة لاشباع حاجاته ، وأن يعدل منها ويتحكم فيها ويستغلها ·

أما البعد الثانى لنسق الفعل فهو **تحقيق الهدف** geal-attainment ووضع بارسونز فى هذا البعد كل الافعال التى تعمل على تحديد أهداف النسق ، وتتحكم فى الموارد وتستغلها محاولة أن تحقق أهداف النسق وأن تحقق داخله ضربا من الاشباع · ولا شك أن هذه القدرة على تحديد الأهداف والسعى نحو تحقيقها بطريقة منهجية هى التى تميز أنساق الفعل عن غيرها من الأنساق التى تسمى الانساق الماديه non-action system ـ واعنى الأنساق الفيزيقية والبيولوجية ·

ويوجد فى كل نسق من أنساق الفعل بعض وحدات السلوك الغرض منها ضبط وكف الميول المنحرفة ، والمحافظة على قدر من التنسيق بين الأجزاء ، وتجنب أى مظاهر للاضطراب داخل النسق · وأطلق بارسونز على هذه المجموعة من الأفعال أفعال **التكامل** · وهذا البعد هو الذى يحقق استقرار النسق حيث يتضمن مجموعة من الأفعال تهدف الى حماية النسق من التغيرات الفجائية والاضطرابات الخطيرة ، والى المحافظة على قدر من التماسك والتضامن الضرورى لبقائه ولأدائه الوظيفى ·

وأخيرا فان أى نسق من أنساق الفعل يحتاج الى مجموعة من وحدات السلوك التى تزود الفاعلين بالدافعية اللازمة · ويعنى هذا ـ بطبيعة الحال ـ أن أى نسق من أنساق الفعل يجب أن يعد جهازا

لشحن الدافعية ، وهو جهاز يحتاج لأن يشحن باستمرار ، لأنه دائما ما يفرغ شحناته · فالنسق يحتاج دائما الى حد ادنى على الأقل من الطاقة الدافعية · وهذه الوظيفة تشبه الى حد ما نسق القوى البدنية ، الذى يجمع الطاقة ويوزعها فى شكل دافعية · وهذا هو السبب فى أن يطلق بارسونز على هذا البعد اسم الكمون Latency أو المحافظة على النمط(١١) Pattern maintenance · وتعد وظيفة المحافظة على النمط نقطة الالتقاء بين أنساق الفعل والعالم الرمزى والثقافى · والمعروف أن العالم الرمزى والثقافى له علاقة بأنساق الفعل لأنه يزودها بالرموز ، والافكار ، وأشكال التعبير والأحكام الضرورية لخلق الدافعية وتوجيهها لدفع الفعل ·

وباستخدام التمييز بين العلاقات الداخلية والخارجية للنسق ، والتمييز بين الأنشطة الآلية والأنشطة التحقيقية يظهر لدينا تصنيف للوظائف الأربعة كما هو واضح فى (الشكل رقم ١)(١٢) ومنذ ظهور كتاب « أوراق عمل فى نظرية الفعل » عام ١٩٥٣ ذهب بارسونز لأول مرة أن النموذج التحليلى القائم على التمييز بين الوظائف الأربعة أصبح شيئا رئيسيا فى كل اعماله ، حيث اعاد صياغته فى صور عديدة · ولقد تعود بارسونز للاشارة الى الوظائف الأربعة حسب ما هو واضح فى الرسم بالحروف (AGIL) (*).

وعند هذه النقطة يجب أن يرتبط عمل بارسونز باسم روبرت بيلز Robert Bales ، فله يدين بارسونز بصياغة نموذج الوظائف الأربعة · فبعد نشر كتاب « نحو نظرية عامة فى الفعل » (عام ١٩٥١) والذى وسع فيه بارسونز من نطاق متغيرات النمط مطبقا اياها على

(*) يشير حرف (A) الى تحقيق الهدف ، وحرف (G) الى التكيف وحرف (I) الى التكامل ، وحرف (L) الى الكمون أو المحافظة على النمط · وكل حرف يمثل الحرف الأول من كل وظيفة من هذه الوظائف فى اللغة الانجليزية · وسوف نشير الى هذه الوظائف بالحروف العربية ا ، ت ، ك ، ن · على التوالى ·

المترجمان

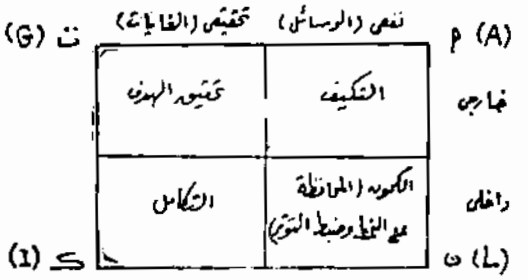

شكل رقم (١) نموذج الوظائف الأربعة لانساق الفعل

النظرية العامة فى الفعل ، كان بارسونز يبحث عن طريقة يربط من خلالها بين الأداء الوظيفى الكلى لانساق الفعل وبين متغيرات النمط ، وفى هذا الموقف أعجب بارسونز بالالتقاء بين بحثه وأعمال واحد من زملائه فى جامعة هارفارد هو روبرت بيلز · كان بيلز يعمل حينئذ فى بحث يحلل فيه التفاعل بين أعضاء جماعات تجريبية تم تكوينها بحيث تكلف بحل مشكلات معينة · وقد أدى به هذا التحليل الى صياغة مقولات لتصنيف كل فعل من أفعال كل عضو من أعضاء هذه الجماعات · ووضع بيلز المقولات التى استخدمها فى أربعة أقسام رئيسية تتصل بما أسماه « بالمشكلات الوظيفية » للجماعة · وتبنى بارسونز صياغة بيلز للمشكلات الوظيفية ، بالرغم من أنه قد عدلها تعديلا طفيفا · وتجدر الاشارة هنا الى أن بارسونز قد اقترب من خلال روبرت بيلز بالتراث الطويل للبحث فى علم النفس الاجتماعى الخاص بالجماعات الصغيرة فى أمريكا · لقد أصبح علم النفس الاجتماعى مرتبطا بعلم الاجتماع ، بحيث اشتق منه بارسونز بعض الأفكار التى أصبحت افكارا أساسية فى نظريته ·

ومن أجل أن يربط الأفكار التى طورها روبرت بيلز بالنظرية العامة للفعل ، ولكى يعمم بعض المقولات التى تم اشتقاقها من مستوى التحليل السوسيولوجى الخاص بالجماعات الصغيرة على كل أنساق الفعل ، اضطر بارسونز الى قبول مسلمة ترابط التحليل السوسيولوجى الواسع النطاق والتحليل السوسيولوجى الضيق النطاق · فاذا كان قد أكد من قبل على ترابط كل أنساق الفعل بدءا من النطاق البيولوجى وحتى النطاق السوسيولوجى ، فليس من الصعب عليه أن يعترف بترابط

الميكروسوسيولوجى (تحليل ودراسة الجماعات الصغيرة) والماكروسيولوجى (تحليل ودراسة المجتمعات) ٠

ومع ذلك فلا يجب أن نعتقد أن استعارة بارسونز لبعض المقولات التى طورها روبرت بيلز قد منعه من أن يستمر فى تطوير عمله من خلال متغيرات النمط ٠ على العكس من ذلك لقد استمر فى توضيح أوجه الترابط بين متغيرات النمط وبين الأبعاد الوظيفية ، وهو ترابط منطقى ٠ فالأنشطة التى تتجه لخدمة حاجة وظيفية معينة ، كالتكيف مثلا ، تتطلب أنماطا من سلوك الفاعلين تختلف عن الأنماط التى تتطلبها الأنشطة التى تتجه لخدمة وظائف أخرى كوظيفة تحقيق الهدف مثلا ٠ ففى الأنشطة المتصلة بوظيفة التكيف ترتبط علاقة الفاعل بالموقف الذى يتحرك داخله بأهداف مختلفة ومن ثم فانها تخضع لمجموعة من القواعد تختلف عن القواعد التى تنطبق على وظيفة تحقيق الهدف ٠ وبناء على ذلك فمن الممكن أن نتوقع أن كل وظيفة من الوظائف الأربعة ترتبط بمجموعة معينة من متغيرات النمط ، سواء ما يرتبط منها بشكل الموضوع أو بتوجيه الموضوع ٠

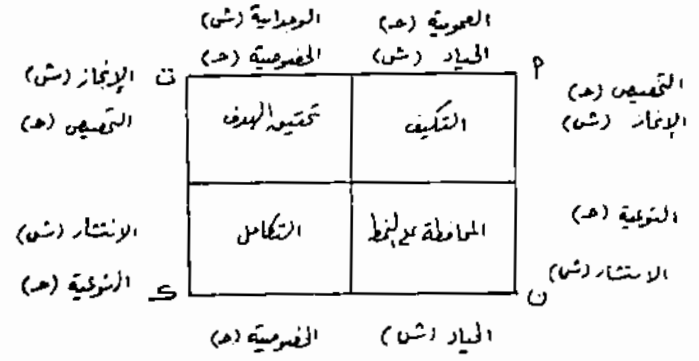

هـ = متغير يتعلق بالتوجيه نحو الموضوع

ش = متغير يتعلق بشكل الموضوع

شكل رقم (٢) العلاقات بين متغيرات النمط والأبعاد الوظيفية لانساق الفعل

ومن الصعب أن نذكر هنا بالتفصيل القصة الكاملة لطريقة بارسونز فى ربط متغيرات النمط بكل وظيفة من الوظائف الأربعة(١٣) · والشكل رقم (٢) يلخص هذه الطريقة · ولكن تجدر الاشارة الى أن كل وظيفة من الوظائف الأربعة ترتبط بمتغيرين يتصلان بشكل الموضوع ومتغيرين يتصلان بالتوجه نحو الموضوع ·

سادسا : الأنساق الفرعية للفعل

تمكن بارسونز باستخدام نموذج الوظائف الأربعة من أن يمحص أفكاره فى مجال آخر · فقد أصر بارسونز لوقت طويل ـ متأثرا بسروكن ـ على أن الفعل الاجتماعى يجب أن يتضمن بالضرورة ثلاثة أنساق مترابطة : نسق الشخصية ، والثقافة ، والأنساق الاجتماعية · ويمكن التعرف على اسهام أى نسق من هذه الأنساق فى تكوين الفعل من خلال التحليل ، فكل فعل ملموس يشتمل على هذه الأنساق الثلاثة مجتمعة · ولكن بارسونز أضاف بعد ذلك ـ ومن خلال تأثره بفكرة الوظائف الأربعة ـ نسقا رابعا هو النسق العضوى ·

فقد ادى تحليل الأبعاد الوظيفية للفعل ببارسونز الى ادخال النسق العضوى فى اطاره التحليلى والى اعطائه أهمية لم يعطها له أى باحث آخر فى علم الاجتماع · فتقسيم نسق الفعل الى أربعة وظائف متميزه سمح بتطوير نموذج نظرى عن العلاقات بين النسق العضوى ، ونسق الشخصية ، والثقافة ، والنسق الاجتماعى ويعد هذا النموذج نموذجا جوهريا فى فهم أعمال بارسونز ككل ·

فقد أصبح واضحا بالنسبة لبارسونز أنه على أعلى مستويات التحليل يمكن اعتبار النسق العضوى ، ونسق الشخصية ، والثقافة والنسق الاجتماعى أنساقا فرعية عامة لأنساق الفعل · وتوصل بارسونز الى النتيجة التى مؤداها ان هذه الأنساق الفرعية الأربعة ترتبط ببعضها بنفس طريقة ارتباط الوظائف الأربعة · **فالنسق العضوى يرتبط بوظيفة التكيف** ، فهو الذى ينظم العلاقات مع العالم الفيزيقى ،

وهو الذى يتكيف معه ، أو يتحكم فيه أو يعيد تشكيله · فمن خلال النسق العضوى يتكيف النسق مع البيئة ويسخر هذه البيئة لاشباع حاجاته · **أما الشخصية فترتبط بوظيفة تحقيق الهدف** · فداخـــل نسق الشخصية ومن خلاله تتحدد أهداف النسق وكذلك الموارد والطاقة التى يستخدمها لتحقيق أهدافه · **أما النسق الاجتماعى فيرتبط بوظيفة التكامل** · فهذا النسق هو الذى يحقق التضامن ، ويولد مصادر الولاء ، ويحدد معـالم السلوك السوى ويفرض الضوابط عليه · **أما الثقافة فانها تمثل وظيفة الكمون أو المحافظة على النمط** · فهى تزود الفاعلين بالدافعية والتدعيم اللازمين لافعالهم ، وذلك من خلال المعايير ، والمثل العليـــا ، والقيم ، والايديولوجيات ، التى تسمح بها أو حتى تفرضها عليهم ·

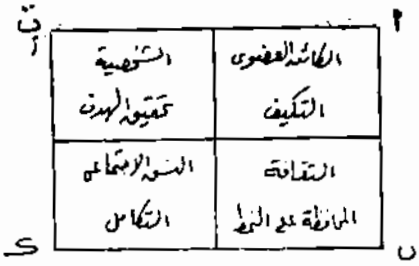

شـكل رقم (٣) الانساق الفرعية لنسق الفعل العام

ومع ذلك فقد أصر بارسونز على أن هذه الأنساق الفرعية الاربعة لاتسهم فى النسق العام للفعل بطريقة واحدة أو بدرجة واحدة · فنسق الفعل لا يستفيد من النسق البيولوجى كله ولكن يستفيد فقط من الأجزاء التى تسهم بأنشطتها فى السلوك الذى يشتمل على معنى معين · ولذلك فان الحركات اللاشعورية والتلقائية للكائن العضوى ، مثل دقات القلب والدورة الدموية ، ليس لها علاقة بنسق الفعـــل · أما نسق الشخصية والنسق الاجتماعى فانهما المجال الحقيقى للفعـــل وهما يوجدان داخل نسق الفاعل ذاته · أما الثقافة فانها أقل الأنساق الفرعية نشاطا ، وذلك لأنها لا تسلك سلوكا ملموسا · أنها تزود الفاعل بالدافعية وتوجه فعله ، ولكنهـــا تبقى خارج الفعـــل · فالنسق الثقـــافى الفرعى يسهم فى نسق الفعل دون أن يندمج فيه اندماجا كاملا مثلما الحال فى نسق الشخصية، والنسق الاجتماعى والنسق البيولوجى العضوى ·

أما عن العلاقات الداخلية بين الأنســـاق الفرعية فهى غاية فى التعقيد · اننا على أى حال نستطيع أن نعتبر كلا منها نسقا مســـتقلا · فمن الممكن من الناحية التحليلية النظر الى كل نسق بخصائصه وأنشطته المتميزة بصورة مستقلة عن الأنساق الأخرى · فمن الممكن تحديد معالم ما أسماه بارسونز « بحدود » الأنساق الفرعية ؛ فهذه الخطوط الفاصلة تميز كل نسق فرعى عن الأنســاق الأخرى · ولكن بالرغم من هـــذا الاستقلال ، الا أن هذه الأنساق الفرعية تعتمد على بعضهـــا اعتمـــادا متبادلا · فكل نسق يعتمد على الآخر ويدعم النسق الآخـــر ويكمله · فالشخصية لا يمكن أن توجد دون وجود الكائن العضوى ، أو دون وجود شبكة من العلاقات المتبادلة مع النســق الاجتماعى والعـــالم الرمزى للثقافة · وبنفس الطريقة فان دافعية الشخصية تعتبر شـــيئا ضروريا للنسق الاجتماعى ، مثلها مثل الاسهام المعيارى والرمزى للثقـــافة · والثقافة لا توجد الا لأنها استوعبت داخل نسق الشخصية وداخل شبكة التفاعل فى النسق الاجتماعى · ولهذا فانه لا يوجد نسق من هـــذه الأنساق متفوق على الأنساق الأخرى ؛ بل أن كلا منها يرتبط بالضرورة ارتباطا شديدا بالأنساق الأخرى · وهذا ما قصده بارسونز عنـــدما وصف هذه الأنساق بأنها « أنساق تحافظ على حدودها » ولكنهـــا فى نفس الوقت « أنساق مفتوحة الحدود » ·

ويوجد عبر هذه الحدود المفتوحة للأنساق الفرعية ضروب مستمرة من التبادل · فهناك أخذ وعطاء مضطرد بين منتجات كل نسق ، بحيث تتداول بين كل نسق فرعى والآخر · وسوف نستفيض فى فصـــول قادمة فى مناقشة ما يقصده بارسونز بهذه الحـــدود المفتوحة بين الأنساق ، والمكانة الرئيسية التى احتلها تحليل هذه العلاقات المتبادلة فى نموذجه النظرى ·

ومع ذلك فان علينا أن نوضح الآن جانبا أخيرا لنموذج الأنساق الفرعية · فكل نسق من هـــذه الأنســاق الفرعية المستقلة نسبيا يمكن اعتباره نسقا مستقلا ومن ثم يمكن تقسيمه بدوره الى أربعة أنســـاق فرعية تتوازى أيضا مع نموذج الوظائف الأربعة · وكل نسق من هـــذه

الأنساق الفرعية الجديدة يمكن اعتباره نسقا مستقلا ومن ثم يمكن تحليله بنفس الطريقة · وبهذا فان نسق الفعل عند بارسونز يشبه الصناديق الصينية Chinese boxes ـ حيث يحتوى كل واحد على صندوق صغير ، يحوى بدوره صندوقا أصغر وهكذا · ويعنى هذا أن أى نسق فرعى على أى مستوى يمكن اعتباره ـ للأغراض التحليلية ـ نسقا مرجعيا system of reference حسب لغة بارسونز نفسه · ويضفى هذا الاتجاه على نموذج بارسونز قدرا كبيرا من المرونة ، كما يضفى عليه فى ذات الوقت قدرا من التعقيد · ولذلك فمن الأهمية بمكان عند استخدام نموذج بارسونز ألا نحيد عن النسق المرجعى الذى نقصده منذ البداية ، والا نخلط بين مستويات التحليل · ودائما مالا يتبع الباحثون هذه القواعد ، وغالبا ما يعزى أخطاء التفسير الى قصور نموذج بارسونز وهى فى الواقع ناشئة عن الاستخدام الخاطىء له ·

سابعا : ديناميات أنساق الفعل

الشرط الثالث الذى يجب أن يتوافر لنسق الفعل بعد البناء والوظائف لكى يكون نسقا هو قدر من التنظيم لدينامياته الداخلية · ويعد هذا الشرط ضروريا لنسق الغرض الرئيسى له هو الفعل والنشاط ·

ويتضمن الفعل بطبيعته قدرا من التغير ، بمعنى اضطراب حالته الراهنة وتحوله الى حالة جديدة · فالفاعل يدخل من خلال فعله فى موقف ويتضمن هذا التدخل بالضرورة حدا أدنى من التغير (التحول) بالنسبة للموقف أو الفاعل · فالنسق لا يمكن تصوره فى حالة من الاستقرار (الاستاتيكى) أثناء عملية التحليل النسقى · ومن ثم فان نسق الفعل ما هو الا نسق دينامى متحرك ·

وفى تحليله لعمليات التغير فى نسق الفعل ، وجد بارسونز أنه من المفيد اتخاذ فكرة التوازن equalibrium كنقطة انطلاق · ولقد جلب عليه ذلك كثيرا من النقد · فقد وجد نقاده فى ذلك دليلا على التحيز الايديولوجى نحو الاتجاه المحافظ والدفاع عن الوضع القائم · ولكن من الضرورى أن نقرأ بارسونز بدقة لكى نعرف أنه استخدم نموذج

التوازن كأداة استرشادية فقط · وغالبا ما كرر بارسونز القـــول بأن التوازن حالة محدودة وأنه من الصعب تحقيقه فى الواقع وهـــو نادرا ما لا يتفق مع الواقع الامبيريقى · والتوازن الذى يتحدث عنه بارسونز ما هو الا **اطار نظرى** يبـدأ منه التحليل النسقى للفعـل · والحقيقة أن مفهوم بارسونز عن التوازن يؤدى بالضرورة الى التحليل الدينامى ، ذلك لأن التوازن الذى يشير اليه هو دائما **توازن غير مستقر** problematic فالتوازن يبدأ فى التخلخل فى نفس اللحظة التى يقوم فيها · والحقيقة ، **أن الفعل ما هو الا عامل يؤدى الى عدم التوازن داخل نسق يسعى دائما الى التوازن وتحقيقه بصعوبة** · فلكل فعل رد فعل ، وتتضمن تلك العملية سلسلة لانهائيـة من التغيرات ومن مظاهر اعادة التكيف · ولقـد اكـد بارسونز فى مناسبات عديدة على المبدأ الذى مؤداه أن لـكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه · وهو يقصد بذلك أن كل فعل يثير رد فعل أو أكثر من رد فعـل مساو له ، ويعتبر رد الفعل بدوره فعلا يثير رد فعل آخر وهكذا ·

والمثال الملموس على نسق الفعل فى حالة التوازن هو حالة الفاعل الـذى يتفق فعله اتفاقا كاملا مع ما يتوقعه منه الآخرون ، ومع المعـايير والقيـم التى تخص الجمـاعة ، فى نفس الوقت الذى يكون فيـه الفاعل راضيا تمام الرضا عن فعله · ويجب أن نفهم أن مثل هذا الموقف ما هو الا محض استثناء ، وأنه اذا تحقق ، فانه لا يتحقق الا فى لحظة خاطفة من لحظات الزمن · ولكنه يمثل حالة نظرية محدودة تمكننا من استيعاب مظاهر عدم التوازن المستمر فى علاقة الفاعل بالموقف ، والعمليات التى تكمن خلف هذه المظاهر وتسببها ·

وأضـاف بارسونز أن افتراض حالة التوازن يمكن استكمالهـا ـ كما هو الحال فى علم الفيزياء ـ بقانون القصور الذاتى Law of inertia ويتم ذلك على النحو التـالى : اذا لم يتأثر النسق بأى نوع من التغير ، فان النسق سوف يستمر فى حالة لانهائية من الاستقرار · بعبارة أخرى· فانه اذا تحققت للنسق حالة من التوازن ، فانهـا يجب ـ من الناحيـة النظرية ـ أن تستمر طالما لم يحـدث أى تدخل خارجى يتسبب فى قـدر

من الاضطراب داخل النسق ، ففى هذه الحالة يختل التوازن · ولكن قانون القصـور الذاتى فى أنساق الفعل هو قانون نظرى مثلما الحال فى علم الفيزياء ، ذلك لأنه يفترض ــ أولا ــ ضـربا من التوازن النظرى ، وثانيا لأنه يفترض ثبات الظروف الخارجيـة ، بالرغم من أنهـا تحـدث تغيرا مستمرا فى الواقع ·

ولكن ما الذى يحدث التخلخل داخل التوازن دائما ويتعدى قانون القصور الذاتى ؟ فى اعتقاد بارسونز أن هناك عمليتين رئيسيتن تتسببان فى تغيير علاقة الفاعل بالموقف همـا الفاعلية Performance والتعـلم Learning وتتكون الفاعلية من كل مظاهر السلوك التى يؤثر من خلالها الفاعل فى الموقف بدرجة أو بأخـرى · وفى نفس الوقت يتأثر بأنشطـة الفاعلين الآخرين وبالموضوعات غير الاجتماعية فى البيئة (مثـل التنوع فى درجة الحرارة) ·

أما **التعلم** فهو صـورة أخـرى من التغير الذى يكسر التوازن · فما يتعلمه الفـاعل ويستدمجه يكون له تأثير فى تغيره ، حتى وان كان تأثيرا طفيفـا ، ومن ثم فى تغير الظروف المحيطـة بفعله وفعله ذاته · فالفاعل من بنى البشر يتمثـل دائما خبرات واقعيـة جديدة ، ومعـرفة وأفكارا جديدة · وهو يعـدل من سلوكه وفقا لهـا باستمرار ، حتى وان كان هذا التعديل لاشعوريا · وهذه الملاحظات الخاصة بالفاعلية والتعلم تنطبق على كل فاعل ، وليس على الفـاعلين الأفراد فقـط ، ولـكن على الجماعات أو التجمعات كفاعلين ·

وتحليل هـذين النوعين من التغير يكشف عن أربعة أنواع أخـرى وفقا لنوعية الفعل محل الاهتمام سواء اكان يتعلق بالفاعل أم بالنسق : واذا اخـذنا الفعل المتعلق بالفاعل فاننا نجـد عمليتن همـا : **الاتصال واتخاذ القرارات** · وهمـا عمليتان توجدان فى كل فعل من أفعال الفاعل تقريبا · فضلا عن ذلك فان كل عمليـة اتصال تتضمن قرارا يحدد طرف الاتصال الآخر وفائدته وضرورته · وهاتان العمليتان تتسببان بطبيعتهما فى تخلخل التوازن ذلك لأنهما يدخلان عناصر جديدة على الموقف ·

أما بالنسبـة للنسق فان بارسونز حـدد داخله عمليتين للتغير ·

هناك **عملية التباين** differentiation ، ومن خلالهـا تصبح أجزاء النسق اكثـر تمييزا ، بحيث تظهر قدرا من الفردية والاستقلال النسبى ، وتؤدى وظائف معينة خاصة بها • هـذا من ناحية ، ومن الناحيـة الأخرى فان أى نسق من أنساق الفعل يحـدث داخله التبـاين يجب أن يخبر فى ذات الوقت عملية متوازية من **التكامل** • وتؤدى هذه العملية الى ترابط الأجزاء المتباينة بعضها بالبعض الآخر ، بحيث تخلق مجموعة من الروابط يظهر فيهـا التأثير والتأثر والتبادل ، وتصل بين هـذه الأجزاء بحيث تكون كلا مترابطا • ولقـد استفاد بارسونز بقدر معقـول من فكرتى التبـاين والتـكامل •

ثامنا : التـدرج السبرنطيقى

اختتم بارسونز تحليله للعمليـات الديناميـة بالاستعـارة من علم السبرنيطقا(*) ، Cybernetics ، وخاصة مفهومة عن التدرج السبرنطيقى

الأبعـاد الوظيفية لأنساق الفعـل	الأنساق الفرعية لنسق الفعـل	العلاقات السبرنطيقية
المحافظة على النسق	النسق الثقافى	المستوى الاعلى للمعلومات (الضوابط) ↓
التكـامل	النسق الاجتماعى	↑ تدرج مظاهر التكيف ↓ تدرج الضوابط
تحقيق الهدف	نسق الشخصية	↑
التـكيف	الكائن العضوى	المستوى الأعلى للطـاقة (مصادر التكيف)

شـكل (٤) التدرج السبرنطيقى والنسق العام للفعل

(*) اشتـق مصطلح السبرنطيقـا Cybernetics عـام ١٩٤٧ من الـكلمة الاغريقيـة Bepnvrins ويشير مصطلح للسبرنطيقا الى العلم الذى يهتم بمجموعة من المسائل تتمركز حول الاتصال والتحكم والميكانيكا الاحصائية سواء فى الآلة او النسيج الحى • وبالرغم من ان السبرنطيقا نشأت من خلال اهتمامات علماء الرياضة والفسيولوجى ، الا انها اصبحت تتصل بعلوم مختلفة ومنها العلوم الاجتماعية والتى تهتم بالاعلام وآليات التوصيل داخل الجماعة • انظر : نوبرت فيز ، السبرنتيكا ، ترجمة د • رمسيس شحاته وزميله الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ المترجمان

(انظر شكل ٤) · ولقد نظر بارسونز الى التدرج السبرنطيقى باعتباره مبدأ هاما فى كل من التكامل والتغير(١٦) ·

ولقد أدت نظرية السبرنطيقا ببارسونز الى أن يؤكد على أن نسق الفعل مثـل كل الانساق الوظيفية يتميز بوجـود تداول مستمر للطـاقة والمعلومات · فتبادل المعلومات والطاقة بين أجزاء النسق هى التى تحركة نحـو الفعـل · غير أن الأجـزاء المختلفـة لا تمتلك قدرا متساويا من المعلومات والطاقة ؛ فبعضهـا يمتك قدرا أكبر من الطاقة ، والبعض الآخر يمتلك قدرا أكبر من المعلومات والنفوذ · وفى هـذه الحالة فان الأجزاء التى لا تمتلك قدرا كبيرا من الطاقة تستفيد من ملكيتها لمصـادر المعلومات والعكس بالعكس · ومن المبـادىء الرئيسية للسبرنطيقا أن الأجزاء التى تمتلك درجة عالية من المعلومات تفرض ضوابط على الأجزاء التى تملك درجة عالية من الطـاقة · وتكون النتيجة أن تنشـأ داخل نسق الفعل سلسلة منظمة تنظيما تدرجيـا من الضوابط المتتاليـة والمتراكمة · وفى قاعدة هذا التدرج توجد العناصر (الوحدات) ذات المستوى الاعلى من الطاقة وهى تعـد بمثابة **عوامل تكيف الفعـل وتتحكم فيه** · أما فى قمة التدرج فتقع العناصر (الوحدات) الخاصة بالمعلومات وهى تعد بمثابة عوامل تضبط الفعل ·

وأدعى بارسونز أن هذا المبدأ يصدق بصفة عامة بالنسبة لأى نسق من أنساق الفعل · وغالبا ما كان يستشهد به ، بل أنه فى كتاباته الأخيرة أعتبره واحـدا من القواعد الهـامة لتنظيم أنساق الفعـل · فاذا عدنا الى الأنساق الفرعيـة الأربعة للنسق العام للفعـل ، فاننا نجد أن النسق العضـوى يمكن أن يعتبر أعلى الانسـاق الفرعيـة فى درجة الطـاقة ، وأقلها فى المعلومات · ويأتى بعده نسق الشخصية ثم النسق الاجتماعى ثم النسق الثقـافى الذى يعتبر أكثر الانساق استحواذا على المعلومات وأقلهـا استحواذا على الطاقة · ولهـذا نجد أن هناك بين هذه الأنساق الأربعة تدرجا فى الضوابط يسير كما هو مبين فى (شكل ٤) · وتكون النتيجة أن العناصر الثقافية تمارس ـ فى النهـاية ـ الرقابة (الضبط)

على النسق الاجتماعى والشخصية والنسق العضوى ، بينما يمارس نسق الشخصية الرقابة على النسق العضوى فقط ، ولكنه يخضع لرقابة أقوى من النسق الاجتماعى والنسق الثقافى ٠

وينطبق نفس المبدأ على المستلزمات الوظيفية لنسق الفعل ٠ فنجد أن وظيفة التكيف تكون أقرب لمصدر الطاقة ، بينما تقترب وظيفة المحافظة على النمط ـ لارتباطها بالنسق الثقافى ـ من أعلى درجة للمعلومات ٠ وفيما بين الاثنين نجد وظيفة تحقيق الهدف أقرب من قطب الطاقة فى التدرج بينما تكون وظيفة التكامل أقرب الى وظيفة المحافظة على النمط ومصدر المعلومات ٠ وفى أى نسق من انساق الفعل يبدأ تدرج الضوابط من وظيفة المحافظة على النمط ثم التكامل فتحقيق الهدف فالتكيف ٠

وأخيرا يجب أن نؤكد على أن بارسونز قد اعتبر التدرج السبرنطيقى مبدأ يرتبط بالنظام والتغير ٠ انه يرتبط بالنظام لأنه يحكم التكامل بين أجزاء النسق ٠ كما أنه يرتبط بالتغير لأنه يحكم الاتجاه الذى تعمل فيه عوامل التحكم والضبط ٠

الحـــواشى

(١) تتشتت عناصر النظرية العامة للفعل داخل أعمال بارسونز فهى توجد بصفة رئيسية فى كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » (١٩٣٧) وكتاب « نحو نظرية عامة فى الفعل » (١٩٥١) وكتاب « أوراق عمل فى نظرية الفعل » (١٩٥٣) ، كما توجد فى عدد من المقالات سوف نشير الى العديد منها خلال هذا الفصل .

(٢) انظر :
R. Bales, Interaction Process Analysis (Cambridge, Addison-Wesley, 1950).

(٣) انظر :
T. Parsons, The Point of view of The Author, in the Social Theories of T. Parsons : A Critical Examination, edited by Max Black (Englewood Cliffs, NJ. Prentice-Hall, 1961) P. 342.

(٤) ناقش بارسونز تصنيفات تونيز فى هامش فى نهاية الفصل السابع عشر فى كتابه « بناء للفعل الاجتماعى » (١٩٣٧) .

(٥) فى الصياغات الأولى لمتغيرات النمط فى كتاب « النسق الاجتماعى » (١٩٥١) ونحو نظرية عامة فى الفعل » (١٩٥١) ظهر متغيرا : التوجه الذاتى والتوجيه الجماعى كنمط خامس من متغيرات النمط . ولقد استغرق هذا التميز فيما بعد داخل التميز بين العلاقات الداخلية والخارجية للنسق فى نموذج الوظائف الأربعة السابق الاشارة اليه ولقد اشار بارسونز أيضا الى متغير سادس يقترب من الفكرة الاقتصادية عن « معدل تفصيل الوقت » أو « نطاق الوقت » (انظر مقاله التالى) :
Parsons, "some comments on the State of the General Theory of action" American sociolgical Review, 16, 6, 1953, PP. 618 - 31.
ثم قرر بعد ذلك أن هذا المتغير مستغرق داخل متغير الحياد والحياد الوجدانى .

(٦) انظر :
"The Proffessions and Social Structure" in : Social Forces, 17, 4, 1939, PP. 457 - 67. Reprimted in : Essays in Sociolgical Theory (1954)

(٧) انظر :
The Social System (1951) chapter 10.

(٨) استخدم بارسونز أيضا : العزو والانجاز ascription vs achievemet بنفس معنى النوعية والأداء quality vs performance ، وهى مصطلحات استعارها من رالف لنتون . فالترشيح لشغل الأدوار المهنية فى المجتمع الحديث يقوم على معايير الانجاز كما تتضح فى الدرجات العالمية والدبلومات والشهادات أما شغل مناصب العرش الملكى فانها تتم من خلال النوعية أو الفرد حيث يفضل الابن الأكبر للملك .

(٩) بالنسبة للقراء الذين يجدون كلمة « شكل » Modality غامضة كما وجدتها ، فان بارسونز وشيلز قد ذهبا الى أن « الشكل هو خاصية من خصائص الموضوع ، وهو أحد جوانب الموضوع الذى يكون فى ضوئها الموضوع ذا دلالة بالنسبة للفاعل » انظر :

Toword a General Theory of Action (1951). P. 64

(١٠) انظر :

" Some Problems of General Theory in Sociology " in : **Theoritical Sociology : Prespectives and development** edited by J. C. Mckinney and E. A. To TiryaKian (New York, Appleton - Century - Crofts, 1970). P. 29.

(١١) بعد صدور كتاب « أوراق عمل » (١٩٥٣) أشار بارسونز عادة الى هذه الوظيفة الرابعة بمفهوم « المحافظة على النمط » ويضيف أحياناً « وضبط التوتر » . ولم يبقى مفهوم الكمون الا لكى يشار اليه بحرف (ن) فى مختصرات الوظائف الأربعة ا ت ك ن

(١٢) غالباً ما يقدم بارسونز نماذجه التحليلية فى أشكال مبسطة بحيث يحتل كل عنصر فى النموذج مربعا او صندوقا معينا ولهذا نجد أن الوظائف الأربعة توضع دائما فى صندوق من أربعة أقسام كما هو موضح فى الشكل رقم (١) .

(١٣) توجد أكثر الشروح تفصيلا لعلاقة متغيرات النمط بالوظائف الأربعة فى كتاب « أوراق عمل فى نظرية الفعل » (١٩٥٣) ، الفصلان الثالث والخامس .

(١٤) فحص بارسونز فى عام ١٩٦٠ تحليله للعلاقة بين متغيرات النمط والوظائف الأربعة فى المثال التالى :

" Pattern Variables Revisited : A Response to Robert Dubin ", **American Sociological Review**, Vol. 25, No. 4, 1966, PP. 467 - 83.

واعيد طبع هذا المقال فى كتابه « النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث » الفصل السابع .

(١٥) انظر :

P. A. SoroKin, **Society, culture and Personality : Their Structure and Dynamics**, New York, HarPer and Row, 1947.

(١٦) شرح بارسونز استخدامه لنظرية السبرنطيقا فى كتابه :

Societies : Evolutionary and Comparative Persepectives, 1966, Chapter 2.